حوليات آداب عين شمس (عدد خاص ٢٠١٧)
www.aafu.journals.ekb.eg//:http
(دورية علمية محكمة)
جامعة عين شمس
كلية الآداب

البنية الثقافية في مقامات الهمذاني

خطيطة محمد على المبروك السويدي*

قسم اللغة العربية وآدابها

المستخلص

يتناول هذا البحث موضوع البناء الثقافي لمقامات بديع الزمان الهمذاني، ويسعى إلى قراءة نص المقامات قراءة ثقافية، ويحاول وضع النص داخل سياقه الثقافي الذي نشأ فيه، لفهمه وتحليل بنيته، والوصول إلى كنهه، استناداً إلى بعض الخطوات المنهجية المستمدة من المنهج الثقافي.

تمثل مقامات بديع الزمان الهمذاني جزءا من تراثنا العربي الأصيل، تبلور في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، و اكتنز بمخزون ثقافي زاخر، ورصد سياقاً ثقافياً، وصور متغيرات زمنية متحولة،وكان تعبيراً عن استيعاب ووعي بالمتغيرات الثقافية لذلك الزمن، فالمقامة نتاج ذلك التفاعل والتواصل بين سياقها الثقافي بظروفه المكانية والزمانية، بوصفه الإطار العام ألزم بديع الزمان الهمذاني أن يبنى خطابه بناء ثقافياً وفق آليات تتلائم وهذا السياق، فقد استطاع الهمذاني أن يستقرأ السياق الثقافي، و أن يكشف عن خباياه، ويحدد ملامحه في قالب أدبي خاص، فالصياغة البلاغية، والترف اللغوي، والبناء المتسق بشكل عام، استلزمه سياق لغوي تميز بالتطور العلمي والثقافي، كما اختصت المقامات بتقديم صور جمة لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية.

الكلمات المفتاحية

السياق، السياق الديني، السياق الاجتماعي، السياق اللغوي

© جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة لحولية كلية الآداب - جامعة عين شمس ٢٠١٧.

المقدمة

المقامة نوع أدبي يجمع فنون القول النثر والشعر والأمثال والألغاز والأحاجي والوصف والمدح، وينفرد ببناء ثقافي خاص، وقد جاء تأليف المقامات في سياق ثقافي سائد في تلك الفترة، وليد للتطور الفكري والثقافي والحضاري والمعرفي في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري، ولا يمكن فهم خطاب المقامات إلا بالعودة إلى سياقها الثقافي، الذي يمثل مرجعا يعين القارئ على فهم معاني النص، و استكناه دلالته، فالمقامة ثمرة ذلك التفاعل والتواصل بين سياق ذلك العصر ومدى إدراك الهمذاني، ووعيه بواقعه وما يدور حوله من تغيرات طرأت على عالمه، والبناء الثقافي للمقامات انعقدت فيه سياقات متعددة، وتجاذبته علاقة تواصلية متينة بالسياق الثقافي، وظروفه المكانية و الزمانية، وتحولاته التي عاشها الهمذاني وتأثر بها وأثر فيها، وأنتجت أدوات عبر بها من خلال مقاماته، فالسياق الثقافي للمقامات بوصفه الإطار العام ألزم بديع الزمان الهمذاني أن يبنى خطابه بناء ثقافياً وفق آليات تتلائم وهذا السياق، فقد استطاع الهمذاني أن يستقرأ السياق الثقافي، و أن يكشف عن خباياه، ويحدد ملامحه في قالب أدبي خاص، هو تعبير عن التجديد والثورة، التي أنتجتها الظروف المتغيرة، فالصياغة البلاغية، والترف اللغوي، والبناء المتسق بشكل عام، استلزمه سياق لغوي تميز بالتطور العلمي والثقافي ، وناشئ عن حياة ثقافية مزدهرة بفعل المدارس وحلقات التدريس ووفرة الكتب والمؤلفات المنقولة والموضوعة، كما اختصت المقامات بتقديم صور جمة لمختلف مظاهر الحياة الاجتماعية، حيث حملت الوقائع والأحداث دلالات تعبر سياق ثقافي متغير، وتمنح صورة جلية واضحة للمجتمع الذي عاش فيه الهمذاني،وبرزت مظاهر الحياة الاجتماعية، من غنى وترف وتعقيد يقابله فقر وبؤس، ومجون ولهو يقابله زهد وتصوف، وتجلت العلاقات المتوترة بين أفراد المجتمع، وتعرضت لسلبيات وهموم ومشاكل أفرزت ردود أفعال من الطبقات المحرومة على الطبقات الغنية، حيث نتمثل من السياق الاجتماعي العديد من الظواهر الاجتماعية، وهو ما يعكس الحياة القائمة على التباين والتكامل، وقد أفضى السياق الثقافي إلى بناء الشخصيات في مقامات الهمذاني بناء ثقافياً مخصوصا، يتساوق مع متغيرات الواقع، ويختزل جانباً من حياة جماعة من الناس حرمت حقوقها، وعاشت مهمشة، فلجأت إلى طرق تعينها على مواجهة قسوة الواقع، وتمكنها من الحصول على قوت يومها، فالبطل أبو الفتح الاسكندري أديب مكدي متلون متحول، يمتلك لغة متينة، وبراعة شعرية ونثرية لها تأثير في السياق الثقافي لمتلقيه، يوظف قدراته ومواهبه وأدبه للحصول على منافع مادية،ومن خلال هذه الشخصية يتجسد جدل المثقف مع السياق المحيط، فكلاً منهما يمارس تأثيره على الآخر.

بناء عليه، نرى أنه من الطبيعي أن يمثل السياق دوراً بارزاً في فهم النص، والوصول إلى مقاصده، وعلى هذا الأساس الذي نطمئن إليه نقرأ مقامات الهمذاني، فالدراسة تروم الوقوف على السياقات الثقافية التي يحملها نص المقامات في ظاهره ومضمره، وتسعى إلى وضع النص داخل سياقه الثقافي الذي نشأ فيه، لفهمه وتحليل بنيته، والوصول إلى كنهه ودلالته، استناداً إلى بعض التقنيات والخطوات المنهجية المستمدة من المنهج الثقافي، و سنحاول في هذا البحث دراسة السياق الديني، والسياق الاجتماعي، والسياق اللغوي لمقامات بديع الزمان الهمذاني.

مفهوم السياق

السياق في اللغة

تعددت المعاني اللغوية لكلمة (سياق) في اللغة فأطلقت على عدة معـــان منهـــا: السَّوق: ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقاً وسياقاً وهو سائق وسَوَّاق، شُدِّد للمبالغة.
والسياق المهر، والسياق: نزع الروح " يقال فلان في السياق أي في النزع.(ابن منظور مادة س و ق) وعن تعلق كلمة السياق بالحديث والكلام يرد قول الزمخشري الذي مفاده: " وتساوقت الإبل أي تتابعت، وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك سياق الحديث، وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه أي علـــى سَـــرْده " (الزمخشـــري ص ٣١٤)

السياق في الاصطلاح

أولاً: السياق في التراث العربي

حددت ملامح السياق في التراث العربي في النحو العربي عند ابن جنـــي (٣٩٢ هـــ) من اللغويين، والزمخشري (٥٣٨هـــ) من المفســـرين، وعبـــد القـــاهر الجرجـــاني (٤٧٤هـــ) من البلاغيين، "بالإضافة إلى جهود الأصوليين واعتمادهم على الســـياق فـــي تخريج الأحكام من القرآن" (حسان ص ٣٤٨) "والحق أن الثقافة العربيـــة، هـــي (ثقافـــة الاستعمال السياقي) ونظرة موجزة إلى أقدم العلوم العربية (النحو) توثق هذه الحقيقة، إذ إن النحاة الأوائل أخذوا سبيلهم إلى البوادي محتملين أقسى المتاعب لكي يجمعوا اللغة من سياقات الاستعمال، حيث يتلقونها شفاهة بالنطق وطريقة الكلام، فلما صح لهم ما جمعوه، عكفوا عليه، ودونوه، ملاحظين الحالات الكلامية التي تختلف من بيئة لأخرى، ومن قبيلة لأخرى، بل تابعوا التطور الزمني وعلاقته بالاستعمال.
وجاء صناع المعاجم ليؤسسوا مادتهم على طبيعة السياق الاستعمالي للكلمات، ومـــن ثـــمَّ رصد المعجميون الكلمة المفردة لتحديد معناها الوضعي،والمعاني التي انضافت إليها فـــي الاستعمال" (عبد المطلب ص ٩٧) وبالرغم مـــن معرفـــة الأقـــدمين للســـياق وعملهـــم وتصريحهم به، من العصي العثور على تعريف محدد له، ويمكن تلخيص القول في مفهوم السياق في التراث العربي في ثلاث نقاط هي:
"الأولى: أن السياق هو الغرض، أي مقصود المتكلم من إيراد الكلام.
الثانية: أن السياق هو الظروف والمواقف والأحداث التي ورد فيها النص أو نزل أو قيل بشأنها، وأوضح ما عبر به عن هذا المفهوم لفظاً الحال والمقام.
الثالثة: أن السياق هو ما يعرف الآن بالسياق اللغوي الذي يمثله الكلام في موضع النظـــر أو التحليل، ويشمل ما يسبق أو يلحق به من كلام يمكن أن يضـــيء دلالـــة القـــدر منـــه (موضع التحليل) أو يجعل منها وجهاً استدلالياً " (الطلحي ص ٥١)

ثانياً: المفهوم الاصطلاحي في العصر الحديث

تبلور مفهوم السياق لدى الباحثين المعاصرين ليصبح متضمنًا البيئة اللغوية وغير اللغوية التي تحيط بالخطاب، وتكشف عن معناه، وقد تأسس هذا المفهـــوم علـــى تقســـيم السياق إلى نوعين سياق النص أو ما يعرف بالسياق اللغوي، وسياق الموقف، وتحدد لكل منهما تعريف على النحو التالي:
السياق اللغوي (المقالي): يقام على اللغة، نظام اللغة الداخلي كالصوت والمعجـــم والتركيب، والبناء النحوي والبناء الصرفي السياق المقامي:وهو السياق غيـــر اللغـــوي، ويقام على العلاقة بين المشاركين في الخطاب المتكلم والسامع وما يحيط بالخطاب ونوع

الخطاب. "إن السياق على هذا التفسير ينبغي أن يشمل لا الكلمات والجمل الحقيقية السابقة واللاحقة فحسب – بل والقطعة كلها والكتاب كله، كما ينبغي أن يشمل – بوجه من الوجوه – كل ما يتصل بالكلمة من ظروف وملابسات، والعناصر غير اللغوية المتعلقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هى الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن.(أولمان ص٦٢)

ويعتبر السياق عنصراً مهماً لفهم النصوص وإدراك كنه مفرداتها المعجمية، ووظائفها اللغوية، وتفسيرها، واستجلاء معانيها، " إن دلالة أي نص نقدي، أو معناه، الذي يسعى دارسه للوقوف عليهما، مرتبطين عضوياً بالسياق، وبالتالي فإن فكرة السياق ضرورة لازبة لفهم أي نص نقدي " " لكل إنشاء سياق ثقافة محدد، يمكن، بل يجب، دراسته بوصفه مؤثراً في البنية اللغوية للنصوص الأدبية، وبوصفه دليلاً لتفسيرها " (أصطيف والغذامي ص ١٣٩)

بناء عليه، فإن المقامات لا يكمن لأي باحث أن يعنى بدراستها مستقلة عن الأوضاع التي تمخضت عنها، فكل مقامة قام الراوي بسردها لا يمكننا فهمها إلاّ بالعودة إلى السياقات التي أتت فيها.

أولاً – السياق الديني

للمقامات خصوصيتها الثقافية،فقد صدرت عن المجتمع العربي الإسلامي، والأوساط الدينية الخاصة، وقدمت صوراً متنوعة لمظاهر الحياة الثقافية والاجتماعية والدينية، فهي وليدة العصر العباسي، الذي ازدهرت فيه الحضارة العربية الإسلامية، ولذا تشبعت مقامات الهمذاني بثقافة ذلك العصر، ولفتت انتباه القارئ إلى السياق الديني من خلال عرضها لقضايا ووقائع وأحداث وشخصيات في إطار الدين الإسلامي، " فقد كان المجتمع مجتمعاً إسلامياً، وكانت الطبقة العامة فيه حسنة الإسلام تتمسك بفرائضه وسننه وشعائره، ولم تكن تعرف الترف ولا ما يجر إليه من مجون وانحلال وفساد في الأخلاق، إنما كانت تعرف الشظف والبؤس والحرمان، وكانت ساخطة سخطاً شديداً على المجان وعلى الشعوبيين والملحدين من أعداء الإسلام والعروبة "(ضيف ص ١٠٥) (لذا سنحاول استجلاء السياق الديني من خلال معطيات نصوص المقامات، بالوقوف على بعض المواضيع، والشخصيات – في بعض جوانبها– والمكان والزمان ودلالاتهما وارتباطهما بالواقع الديني.

النزعة إلى الوعظ:

شغل الوعظ مساحة واسعة من نصوص المقامات وكان له حضور قوي فيها، وذلك ناتج عن أسباب عديدة منها: إدراك بديع الزمان الهمذاني لدور الدين في إصلاح المجتمع، وما يحظى به الوعاظ والخطباء والأئمة من إكبار وإجلال ، " فقد كانت تعقد حلقات للوعاظ والقصاص، وكان الناس يتحلقون حولهم فيما يشبه احتفالات الأعياد " (ضيف ص ١٠٥)، و ارتباط أصول المقامة بالوعظ، فقد عرفت الحضارة العربية الإسلامية فن المقامة مرتبطاً بالقص الوعظي، ويؤكد ذلك الدكتور إبراهيم السعافين حين يشير إلى أصول المقامات، فيذكر منها:" مقامات الوعاظ والنُّساك والعُبّاد والقاصين والخلفاء "(السعافين ص ٢٣-٣١)، ولذلك كان للوعظ حضور قوي، فقد أزالت المقامات الستار عن هذه الظاهرة المنتشرة في المجتمع، واستطاعت أن تقدم شخصية الواعظ على حقيقتها دون تحريف أو تغيير، فأشارت المقامات إلى انتشار الوعاظ في الأسواق، وإقبال العامة وتزاحمهم حولهم في غير موضع، يقول عيسى بن هشام في المقامة الوعظية: " بَيْنَا أنا بالبصرة أميس ُ، حتى أداني السير إلى فرضة قد كَثُرَ فيها قومٌ على قائمٍ يعظهم "(الهمذاني ص ١٨٦)

ولا تخلو نصوص المقامات من الدعوة إلى تسليم زمام الأمور إلى الأئمة، و الانقياد إليهم وطاعتهم لأنه السبيل إلى النجاة " وإنكم أشقى من أظلتهُ السماءُ، إن شقي بكُمُ العلماءُ، الناس بأئمتهم فإن انقادوا بأزمتهم، نجوا بذمتِّهم " (الهمذاني ص ١٧١)

مضمون الموعظة:

تتجلى المقامة منبراً للوعظ والإرشاد الديني، بما تضمنت من مواعظ جمة كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتأكيد الأخلاق الإسلامية، و انتظمت المواعظ في السياقات الدينية التالية:

أولاً: التذكير بالبعث واليوم الآخر، وبفناء الدنيا والمآل الذي ينتهي إليه كل حي،وأن الناس سيصبحون في باطن الأرض بعد ظهورها، وستضمهم الحفر تحت التراب، بعد العيش في دور فسيحة، ويذكرهم بوحشة القبر وعزلة الميت، كقوله (الهمذاني ص ٦٦):

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنُهم فيها بَوَالٍ دواثرُ
خلت دورهم منهم وأقوتْ عراصُهُمْ وساقتهم نحو المنايا المقادرُ
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا لها وضمتهم تحت التراب الحفائرُ

وتنوه الموعظة إلى زوال الدنيا، وأنها قنطرة تجتاز بالعمل الصالح، وأن عجلة الزمن تدور سريعاً بالإنسان،يقول في المطلبية " هل الدنيا إلا مناخ راكب "(الهمذاني ص ٤٣٨) و لزاماً علي الإنسان أن يستثمر أوقاته ودنياه ليظفر بآخرته ودينه، وفي هذا السياق قوله: " إن بعد الحدث جدثاً "(٣)وقوله:" فليكن الموت منكم على ذُكر، لئلا تأتوا بنكر، فإنكم متى استشعرتُمُوهُ لم تجمحوا، ومتى ذكرتموه لم تمرحوا وإن نسيتموه فهو ذاكركم، وإن نمتم عنه فهو ثائركم "(الهمذاني ١٦٨) والتذكير بالموت من خلال الجنازة: " لترونها صُغْراً، ولتركبنها كَرْهاًوقسراً، مالكم تطيَّرون من مطيَّة ركبها أسلافكم، وسيركبها أخلافكم، وتتقذرون سريراً وطئه آباؤكُمْ، وسيطؤُهُ أبناؤكم "ثانياً: الدعوة إلى الزهد في الدنيا، وازدراء من يغرمون بها، والسعي للفوز بثواب الآخرة،ولعل ما يؤكد ذلك قوله:" يا قوم الحذر الحذر، والبدار البدار، من الدنيا ومكايدها، وما نصبت لكم من مصايدها، وتجلت لكم من زينتها، واستشرفت لكم من بهجتها.

وفي دون ما عاينت من فجعاتها إلى رفضها داعٍ وبالزهد آمر
فجدَّ ولا تغفل فعيشك بائدٌ وأنت إلى دار المنية صائر
ولا تطلب الدنيا فإن طِلابها وإن نلتَ منها رغبة – لكَ ضائرُ (الهمذاتي ص ١٧٥)

يحث الوعظ على الزهد في المال، وترك السعي من أجل الحصول عليه لأنه عرض زائل، والترغيب في الفقروالدعوة إليه لأنه حلية النبي، ومحفزاً على الطاعات، " ألا وإن الفقر حلية نبيكم فاكتسوها، والغنى حلة الطغيان فلا تلبسوها" (الهمذاني ص ١٦٩)

وقد ارتبط الزهد بشخصية البطل، من خلال رثاثة المظهر،التي هي من صفات الزهاد، حيث يبدي الخشونة في ملبسه، ويقتصر على الأطمار البالية، أو شملة الصوف، ويأخذ نفسه بالحرمان والتجرد من متاع الدنيا.

ثالثاً: توضيح مزية الصبر في الملمات والمصائب، ووجوب التحلي به، وترويض النفس عليه لأنه أشد الضرورات للمسلم، فقد تزود البطل بالصبر واتخذه عوناً ليتمكن من غاياته، ولم يبدي جزعاً تجاه ما يغشاه من الحوادث، في المقامة الحرزية يسأله عيسى بن هشام متعجباً: "كيف نصرك الصبر وخذلنا ؟فيجيبه شعراً:

ويك لولا الصبر ما كنت ملأت الكيس تبراً

لن ينال المجد من ضاق بما يغشاه صبرا
وخلوا عن الدنيا وما جمعوا بها وما فاز منهم غير من هو صابر
(الهمذاني ١٤٤)

رابعاً: النهي عن الخمر والكبائر ومنكر الأعمال وشنيعها،والدعوة إلى التستر عند الابتلاء بالسيئات والمعاصي، ويؤكد ذلك قوله: " أيها الناس من خلط في سيرته، وابتلى بقاذورته، فليسعه ديماسه دون أن تنجسنا أنفاسه، إني لأجد ريح أم الكبائر من بعض القوم، فما جزاء من بات صريع الطاغوت " (الهمذاني ص ٤٢١)

التمسك بالعقائد الدينية

لم يعزب عن بال الهمذاني توضيح تمسك القوم بدينهم الإسلامي وعقائدهم وعباداتهم، فهم يحبون الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته حباً شديداً، ويتبادرون الدعوة إلى الصلاة، ويقبلون عليها بخشوع وخضوع، يقول عيسى بن هشام في المقامة الخمرية: " ثوّب منادي الصبح، فخنس شيطان الصبوة، وتبادرنا إلى الدعوة، وقمنا وراء الإمام، قيام البررة الكرام، بوقار وسكينة "(الهمذاني ص ٤١٩) فهم يحرصون على الصلاة ويستعينون ببركاتها، ويتسابقون إلى الصفوف الأولى، وفي المقامة الأصفهانية يعتزم عيسى بن هشام المسير، فيتوقع القافلة، ويترقب الراحلة، وحين يتهيأ السفر يسمع نداء الصلاة، فيجيب ، يقول: " فلما حمَّ ما توقعته، نودي للصلاة نداءً سمعته، وتعين فرض الإجابة، فانسللت من بين الصحابة، اغتنم الجماعة أدركها، وأخشى فوت القافلة أتركها، لكني استعنت ببركات الصلاة، على وعثاء الفلاة، فصرت في أول الصفوف، ومثلت للوقوف " (الهمذاني ص ٦١)

وفي المقامة الكوفية بعد أن تقدم به العمر وعلاه الشيب، يشدُّ الراوي رحله لأداء فريضة الحج، يقول " كنت وأنا فتيُّ السن أشدُّ رحلي لكل عماية، وأركض طرفي إلى كل غواية، حتى شربت من العمر سائغة، ولبست من الدهر سابغة، فلما انصاح النهار بجانب ليلي، وجمعت للمعاد ذيلي، وطئت ظهر المروضة لأداء المفروضة " (الهمذاني ص ٣١) وقد أيقن أبو الفتح تمكن هذا الجانب الروحي الديني في نفوس القوم، ولهذا سخَّر هذا الجانب لتحقيق مآربه والفوز بالعطاء الجزيل، يقول الواعظ: " من كان منكم يُحبُّ الصحابة والجماعة فليعرني سمعه ساعة " قال عيسى بن هشام: " فلزمت أرضي، صيانة لعرضي " فقد لزم عيسى بن هشام مكانه رغم خوفه الشديد من فوت القافلة التي يعتزم السفر فيها، لأنه لو خرج بعد هذا القول، لناله من القوم الإهانة والتنكيل، ويعقب الإمام قائلاً:" حقيق عليّ أن لا أقول غير الحق ولا أشهد إلاَّ بالصدق قد جئتكم ببشارة من نبيكم، لكني لا أوديها حتى يطهر الله هذا المسجد من كل نذل يجحد بنبوءته " قال عيسى بن هشام: فربطني بالقيود، وشدني بالحبال السود "(الهمذاني ص ٦١) فقد أوثقه الإمام بتلك المقالة، فلا يمكن أن يغادر من السامعين أحد، لأن خروجه يثبت نكرانه وجحوده لنبوءة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، التي تمثل عقيدة راسخة لا يمكن المساس بها.وفي المقامة الخمرية يشتم الإمام رائحة أم الكبائر من بعض القوم،فينكر ذلك ويستفهم عن نوع العقوبة التي ستقدرها الجماعة على هؤلاء الشاربين، بقوله:" فما جزاء من بات صريع الطاغوت، ثم ابتكر إلى هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع، وبدابر هؤلاء القوم أن يقطع " ثم يشير إلى الشاربين، يقول الراوي " فتألبت الجماعة علينا، حتى مزقت الأردية، ودميت الأقفية، وحتَّى أقسمنا لهم لا عُدنا، وأفلتنا من بينهم وما كدنا، وكلنا مغتفر للسَّلامة، من مثل هذه الأفة " (الهمذاني ص ٤١٩)

الإمام والواعظ :

تحمل هذه الشخصية الدينية بعداً ثقافياً وتعبر عن الواقع المتخم بالمتناقضات،إذ من المنتظر أن تكون مثالاً للقيم والأخلاق الإسلامية السامية، لكنها تتجلى في المقامات معاكسة لذلك فهو شخصية متقلبة متغيرة يبدي الخير والتقوى والورع وتكشف خباياه عن الشر والفجور وانتهاك المحرمات ، والعبث بالمقدسات، رغم إحاطته بأمور الدين، وتفصح المقامات عن صور متعددة للشخصيات الدينية المتمثلة في الوعاظ والأئمة منها :

– الإمام الواعظ الصادق الذي يتجرد من أي غرض دنيوي، ويقدم وعظه خالصاً لله، ورغبة في إصلاح المجتمع، ونجد مثالاً على ذلك في المقامة الأهوازية، فالواعظ يرتدي ثوبين خلقين، ويتوكأ على عكازة، يتزهد في الدنيا، ويتعفف عن متاعها، فطِلابه إرشاد الناس و هدايتهم وحثهم إلى الإسراع في عمل الخير،وليس له غرض سواه، فقد عرض عليه ما شاء " من متاع الدنيا وزخرفها " فأجاب: " لا حاجة لي فيها، وإنما حاجتي بعد هذا أن تَخِذُوا أكثرَ مِنْ أنْ تَعُوا " (الهمذاني ص ٦٩)

– والإمام المنافق الذي يتخفى تحت بردة الدين والزهد، ويظهر الخشوع والتبتل لله، ويضمر خلافه، ويتخذ ذلك سبيلاً لاستمالة القوم واجتذابهم، ومن ثمَّ الحصول على عطاياهم ، ويبرز التناقض العنيف بين الأقوال والأفعال في المقامة الخمرية،إذ يتخذ سمت الورع والإمام الذي يصلي بالناس، وما إن ينتهي من صلاته حتى يتجه شطر الحانة ، ويقوم بدورالمطرب فيها،وكذلك في المقامة الأصفهانية يتقدم الإمام المحراب،ويستنزف أرواح الجماعة بصلاته وحين يفرغ من صلاته يدعي انه رأى في منامه الرسول صلى الله عليه وسلم،وانه علمه دعاء وأوصاه أن يعلمه أمته، فكتب الدعاء على أوراق " بخلوق ومسك وزعفران وسك " ثم يقول: " فمن استوهبه مني وهبته،ومن رد عليّ ثمن القرطاس أخذته" (الهمذاني ص ٦١)، فأنثالت عليه الدراهم حتى حيرته.

أفكار ومعتقدات غير إسلامية

ونواجه في السياق الديني للمقامات بروز أفكار وأوهام تحمل دلالات على انحراف العقيدة الإسلامية، وتعطيل عقل الأمة بالترهات، وضعف الارتباط بشرع الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم، ومن هذه الأفكار الإيمان بالحرز والتمائم، والتطير،والإيمان بشيطان الشعر، توضح المقامة الحرزية رغبة القوم في الحرز – وهو ما يكتب في أوراق ويجعل كالتمائم، يحملها المرء لغرض من الأغراض – حين تشرف السفينة التي يستقلها الراوي وجماعة ترافقه على الغرق، فيجزع الركاب خشية الهلاك، ويبكون ويشكون، ويستشعر الإسكندري رغبتهم في النجاة فلا " يخضل جفنه ولا تبتل عينه رخي الصدر شرحه، نشيط القلب فرحه " مما يثير عجب بقية الركاب، ويسألونه عما أمنه من العطب، فيجيب بأنه " حرز لا يغرق صاحبه،ولو شئت أن أمنح كلاً منكم حرزاً لفعلت " فرغبوا إلى حرزه وألحوا في طلبه " فكل رغب إليه، وألح في المسألة عليه" (الهمذاني ص ١٤٤)

ومن الأفكار والمعتقدات الوافدة والغريبة عن العقيدة الإسلامية ادعاء المعرفة بالأسرار و العلم بأشياء لا يعلمها سواه، في المقامة الموصلية (الهمذاني ص ١١٥) يدعي البطل (أبو الفتح) أنه قادر على نشر ميت وإعادة الحياة إليه،وذلك حين ولج " إلى دار قد مات صاحبُها، وقامتْ نوادبُها، واحتفلتْ بقومٍ قد كوى الجزعُ قلوبهُمْ " فقال: " يا قوم اتقوا الله لا تدفنوه فهو حيٌّ، وإنما عرته بهتةٌ، وعلته سكتة، وأنا أُسلِّمُهُ مفتوح العينين بعد يومين " فصدق القوم ادعاءه، فقام الاسكندري إلى الميت "

فنزع ثيابه ثم شدَّ له العمائم، وعلق عليه تمائم، وألعقه الزيت، وأخلى له البيت " وما إن خرج من عنده حتى " شاع الخبر وانتشر، بأن الميت قد نشر " يقول الراوي: " وأخذتنا المبار من كل دار، وانثالت علينا الهدايا من كل جار حتى ورم كيسنا فضة وتبراً"، وحين يأتي إلى قرية يتحيفها الماء " وأهلها مغتمون لا يملكهم غمض الليل، من خشية السيل " فينتهز حالة الذعر التي هم فيها، ومشاعر الخوف التي تعتورهم قائلاً: " ياقوم أنا أكفيكم هذا الماء ومعرَّته، وأرد عن هذه القرية مضرته "، فيأمرهم بذبح بقرة صفراء، والإتيان بجارية عذراء والصلاة خلفه ركعتين، فيطيعونه ويفعلون ما أمر وتُذبَح البقرةُ، ويُزوَج الجاريةُ، ويؤمهم في صلاة مشروطة بقوله: " يا قوم احفظوا أنفسكم لا يقع منكم في القيام كبوٌ، أو في الركوع هفوٌ، أو في السجود سهوٌ، أو في القعود لغوٌ، فمتى سهونا خرج أملنا عاطلاً، وذهب عملنا باطلاً، واصبروا على الركعتين فمسافتهما طويلة " (الهمذاني ص ١١٩) فقد اغتنم الاسكندري غفلة القوم وعدم تبصرهم، وانسياقهم وراء الأوهام، لحاجتهم إلى ما يبث الاطمئنان في نفوسهم.ومما يدلل على تلك الفجوات الروحية والعقيدية، القول بالخرافات، وبأن لكل شاعر رئيًّامن الجن يملي عليه الشعر، ومن ذلك ما ورد في المقامة الأبليسية إذ يقول: " فما أحد من الشعراء إلا ومعه معين منا "(الهمذاني ص ٢٥٣)

الصراع المذهبي:

سادت الخلافات المذهبية، واشتدَّ ساعد الفرق الإسلامية، فتعددت أنشطتها، واختلفت معتقداتها، ونشب صراع فكري، مما حفز للمناظرات والحلقات والحجاج بين تلك الفرق، وقد تردد صدى تلك الخلافات في مقامات بديع الزمان الهمذاني، و تعرّض في بعض مقاماته للقضايا الكلامية، وسخر من بعض المذاهب الإسلامية كالمذهب المعتزلي.

في المقامة المارستانية (الهمذاني ص ١٥٠) يلج الراوي ومعه أبو داود المتكلم إلى مارستان البصرة فيلتقيان أحد النزلاء، فيهاجمهم بخطاب قوي اللهجة، وينال من معتقدات المعتزلة، ويدحض أرائهم ، مخاطبهم بقوله " أنتم – يا مجوس هذه الأمة – تعيشون جبراً، وتموتون صبراً "،ويَردُّ عليهم أقوالهم، كقولهم أن العبد اختار أعماله التي سار عليها بعد أن عرضت عليه، ونكرانهم لعذاب القبر، بقوله: " وإن قيل " عذاب القبر" تطيرتم، وإن قيل " الصراط " تغامزتم، وإن ذكر الميزان قلتم: من الفِرْغِ كفتاه، وإن ذكر الكتاب قلتم من القد دفتاه، يا أعداء الكتاب والحديث، بماذا تطيرون ؟ أ بالله وآياته ورسوله تستهزئون ؟ إنما مرقت مارقة فكانوا خبث الحديث، ثم مرقتم منها فأنتم خبث الخبيث " فينقض أقوال المعتزلة.

يقيم الحجج ويورد الأدلة التي تدحض ما يؤسس مذهبهم، يقول الراوي: " فبقيت وبقى أبو داود لا نحير جواباً، ورجعنا عنه وإني لأعرف في أبي داود انكساراً "ويبدو أن اختيار البديع لتلك الشخصية وللمكان الذي دارت فيه لم يكن محض المصادفة، فقد تعمد أن يكون المكان الذي تقال فيه هذه الآراء هو مكان لعلاج المجانين والمختلين، وأن تصدر هذه الآراء عن مختلٍ ؛ ليكون في مأمن من خصومه، وليحظى بحرية تامة في أقواله،التي لا يستطيع التصريح بها " لما يلقاه أصحاب الآراء الحرة من كبت "(عوض ص ١٠٧) وفي المقامة النيسابورية (الهمذاني ص ٣٠٥) يتعرض الإسكندري بالنقد لرجل " قد لبس دنِّيَّة، وتحنك بسُنِّيَّة " تزيَّأ بزي القضاة، وعمامة أهل السنة، بقوله: " هذا سُوسٌ لا يقعُ إلا في صُوفِ الأيتامِ، وجَرَادٌ لا يسْقُط إلا على الزَّرع الحرامِ، ولصٌ لا يثْقُبُ إلاَّ خِزانة الأوْقافِ، وكرديٌّ لا يغير إلا على الضعاف، وذئْبٌ لا يفترسُ عبادَ الله إلاَّ بين الرُّكوع

والسُّجودِ، ومُحاربٌ لا يذْهَبُ مالَ الله إلاَّ بين العُهُودِ والشُّهودِ، لبسَ دنِّيتَّه، وخلع دينيَّتَـهُ، وسوَّى طيلسانهُ، وحرَّف يدهُ ولِسانَهُ، وقصَّر سبالهُ، وأطال حبالهُ، وأبدى شَقاشِقهُ، وغطَّى مخارقهُ، وبيَّضَ لحيتهُ،وسوَّدَ صحيفَتهُ، وأظهرَ ورعهُ، وستَرَ طَمَعَهُ "

المكان والزمان ودلالاتهما على السياق الديني:

يتأتي من السياق الديني أسماء لأمكنة وأزمنة تمثل معالم دينية، وتشير إلى ما يعتور في تلك الفترة من تناقضات جمة، جراء اشتباك المقدس بالمدنس، وانعدام للتفريق بين الحق والباطل. المكان في السياق الديني:

ترد في المقامات أسماء لأمكنة ذات حمولة دينية، كالمساجد ودار العبادة، والمقبرة والحانة، فالمقبرة والجنازة مكان يبعث في الإنسان شعوراً بالخشية من انتهاء حياته، ويذكره بمآله، ومصيره المحتوم، ولذا كانت باعثاً للتطير في المقامة الأهوازية حين يقول عيسى بن هشام: " فتطيَّرْنا لمَّا رأينا الجنازة، وأعرضنا عنها صفحاً، وطوينا عنها كشحاً " (الهمذاني ص ٦٧)، واختارها الإسكندريلحثهم على الإنابة لله، والاستتابة من الذنوب، والخشوع والسعي للطاعات وترك الشهوات.

والحانة: تحيل الحانة إلى واقع يعج بالمجون، واقتراف الذنوب، من شرب للخمر وفساد و اختلاف إلى القيان، وانصراف للهو وشغف بالشراب والغناء، وهو مكان يركن إليه الراوي والبطل، طلباً للبهجة، يتقاضى منه السرور، ويسلو فيه عن همومه، ويزجي نصب يومه، وفي المقامة القريضية يتخذه بن هشام مثابة يتذاكر فيها القريض مع أصحابه، فيقول: " فاستظهر على الأيام بضياع أجلت فيها يد العمارة وأموال وقفتها على التجارة، وحانوت جعلته مثابة، ورفقة اتخذتها صحابة، وجعلت للدار حاشيتي النهار، وللحانوت بينهما، فجعلنا يوماً نتذاكر القريض وأهله " (الهمذاني ص ١٠)

ويقول في المقامة الخمرية: "ولما حشرج النهار أو كاد، نظرنا فإذا برايات الحانات أمثال النجوم، في الليل البهيم، فتهادينا بها السراء، وتباشرنا بليلة غراء، ووصلنا إلى أفخمها باباً، وأضخمها كلاباً، وقد جعلنا الدينار إماماً، والاستهتار لزاماً، فدفعنا إلى ذات شكل ودلٍ، ووشاحٍ منحل " (الهمذاني ص ٤١٥)والمساجد رمز للدين، وأماكن للعبادة، وجماع للقيم والأخلاق، فهي تعج بالمصلين، ولم تكن للعبادة فحسب، فقد احتفلت بالمجالس العلمية، وحلقات الدرس، ويتأكد ذلك من قول عيسى بن هشام " أشتد بي الحر، وأعوزني الصبر، فملت إلى مسجد قد أخذ من كل حسن سره، وفيه قوم يتأملون سقوفه، ويتذاكرون وقوفه " (الهمذاني ص ٢١٥) ويؤكد أبو الفتح الاسكندري على وجوب احترام المساجد والعمل على إعلائها بقوله : " ثم ابتكر إلى هذه البيوت التي أذن الله أن ترفع" (الهمذاني ص ٤١٦)

الزمن في السياق الديني:

تنم الألفاظ ذات الدلالة الزمنية في هذا السياق عن وعي بأمور الدين والدنيا، وإدراك لحركة الزمن في الكون، برؤية دينية إسلامية، تعنى بعلاقة الإنسان بخالقه، وتهتم بفكرة البعث واليوم الآخر، إذ تذَّكر نصوص المقامات بمرور الزمن وفناء الحياة وزوالها، وأن الإنسان قد يغفل في صباه فينصاع لشهواته، لذا فالتقدم في العمر والمشيب نذير لإصلاح المعاد،و زاجر يدعو إلى الإنابة لله والارعواء، ولعل ما يؤكد ذلك قوله: " كنت وأنا فتي السن أشد رحلي لكل عماية، وأركض طرفي إلى كل غواية، حتى شربت من العمر سائغة، ولبست من الدهر سابغة، فلما انصاح النهار بجانب ليلي، وجمعت للمعاد ذيلي، وطئت المروضة ؛ لأداء المفروضة "(الهمذاني ص ١٣)

وقوله: " والآن لما أسفر المشيب، وعلتني أبهة الكبر، عمدت لإصلاح أمر المعاد، بإعداد الزاد، فلم أر طريقاً أهدى إلى الرشاد مما أنا سالكه " (الهمذاني ٢٨)

ثانياً – السياق الاجتماعي:

ارتبطت مقامات الهمذاني بالسياق الاجتماعي الذي نشأت فيه ارتباطاً وثيقاً، وحملت نصوصها آثار ثقافة المجتمع، فقد استمد الهمذاني مادته، واستقى تجاربه من بيئته ووسطه الثقافي، فرصد الحياة الاجتماعية بكل أبعادها، وتعرض للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد، وأنماط السلوك، وكشف سلبيات ومعايب كثيرةعلى مستوى سلوك الأفراد والأخلاق، والقيم والعادات في عصره .

وفي السياق الاجتماعي تبرز جملة من القضايا التي أولاها الهمذاني عنايته منها :

إبراز التعارض والاختلاف الثقافي بين عالم المدينة وعالم الريف، وقيم اجتماعية متباينة بعضها ايجابي، والآخر سلبي: وخير مثال على ذلك ما نجده في المقامة البغدادية (الهمذاني ص ٧١) إذ تختلف البيئة الجغرافية بين الشخصيتين الرئيسيتين، عيسى بن هشام والسواديّ، حيث يقطن عيسى بن هشام (الحضري) مدينة بغداد، أما السواديّ الوافد إلى المدينة، فقد نسب إلى سواد بغدادأي إلى الريف.

يبدأ ابن هشام بتحديد المكانين الذين تدور فيهما أحداث المقامة وهما (بغداد، الكرخ)، بقوله: " اشتهيت الأزاد وأنا ببغداد، وليس معي عقد على نقد، فخرجت انتهز محاله حتى أحلني الكرخ، فإذا بسوادي يسوق بالجهد حماره، ويطرف بالعقد إزاره، فقلت: ظفرنا والله بصيد " فقد اشتهى الأزاد، " – وهو نوع جيد من التمر – وليس معه عقد على نقد " ولذا خرج ينتهز فرصة للحصول عليه، فوقع تحت طائلة بصره سوادي يبدو متعباً ضعيفاً " يسوق بالجهد حماره " ويمتلك مالاً " يطرف بالعقد إزاره " وتوفرت في هذه الشخصية الريفية الوافدة ضالة ابن هشام التي ينشدها، ووجد فيه سبيلاً إلى مشتهاه، الأمر الذي جعله يؤكد ذلك بالقسم قائلاً: " ظفرنا والله بصيد " فهو يمتلك النقود مع غياب الحرص، والغفلة في إخفائها، ولذلك نصب ابن هشام شراكه لاصطياده، وهذا ما يحيل إلى ثقافة البدوي وأخلاقه وتميزه بالبساطة، والثقة فيمن حوله، ويعبر عن ثقافةأهل الحضر، وسلوكهم الانتهازي والتعسفي والساخر، ويذكرنا ذلك بصورة الأعرابي في الثقافة العربية، وكتب التراث الأدبي حين قدومه المدن والأسواق، والغفلة التي يقع فيها الريفي عند ولوجه في عالم المدينة المعقد مما يجعله عرضة للاحتيال والنصب. ومما يلفت الانتباه ثنائية الضيافة والاحتيال، التي تحيل إلى انقلاب القيم الثقافية وتدهورها، فالضيافة نسق ثقافي قديم ارتبط بحياة العرب منذ القدم، ترصد المقامات تحولا لذلك النسق،حيث باتت الضيافة في المدينة وسيلة للاحتيال، إذ يحتال ابن هشام (الحضري)على الريفي بادعاء أنه صديق قديم لوالده،ويزجي له الحفاوة والترحيب، ويدعوه قائلاً: " هلمّ إلى البيت " ثم يجدد تلك الدعوة مع التخيير قائلاً: هلم إلى البيت نصب غداء، أو إلى السوق نشتر شِواءً، والسُّوقُ أقربُ، وطعامُهُ أطيبُ " بيد أنه تخيير يتضمن إجبار وتوجيه لطعام السوق، وذلك أن جعل له الأفضلية عن طعام البيت، وأنه قريب المسافة، مستغلاً تعب السوادي وإرهاقه، فلبى السواديّ الدعوة كضيف لينتقي له ابن هشام طعام فاخر، وما إن ينتهي من طعامه حتى ينسحب المضيف هارباً، وتاركاً الضيف يدفع ثمن غفلته، وانقلب الضيف إلى مضيف.

وفي هذا السياق يظهر سوق الأطعمة الزاخر بأصناف الطعام من الشواء والحلوى والرقاق، والذي يوفر لرواده أجود الخدمات،بوصفه معلم من معلم المدينة الحضارية، فقد بدا عيسى بن هشام آمراً للشوّاء وصاحب الحلوى بقوله: " افرز لأبي زيد من هذا الشِّوَاءِ،

ثم زن له من تلك الحلواءِ، واختر له من تلك الأطباق، وانضد عليها أوراق الرقاق، ورش عليه شيئاً من ماء السُّمَّاق ، ليأكله أبو زيد هنيئاً " والشواء طائعاً ملبياً ما يطلب منه، " فأنحنى الشَّوَّاءُبساطوره على زبدة تنوره فجعلها كالكحل سحقاً، وكالطحن دقاً "(الهمذاني ص ٧٢)، وفي هذا المناخ الاجتماعي المتمثل في المطعم يبرز صدام ذي طبيعة اجتماعية اقتصادية وهو الصدام بين السوادي والشواء حول ثمن الطعام، فالشواء تاجر يحتكم إلى قانون السوق – الذي يجعل لكل بضاعة ثمنا – يتوجه بالسؤال إلى السوادي قائلاً: " أين ثمن ما أكلت ؟ " وهو سؤال يحمل الأمر بسداد ثمن الطعام الذي تناوله هو وابن هشام، والسوادي الذي يتوهم أنه ضيف يرد قائلاً: " أكلته ضيفاً " محيلاً بعد اجتماعي مستمد من البادية، مؤداه أن الضيف لا يدفع الثمن، وهكذا تحركت الشخصيات في فضاء يتعارض فيه أهل الريف وأهل المدينة، واستخدمت الضيافة بما تحمله من قيم ايجابية، كوسيلة للاحتيال الذي يمثل قيمة سلبية، ويؤكد السياق الاجتماعي ثقافة مجتمع الصيد والغاب، إذ يدخل البدوي إلى المدينة غريباً فيباغته الحضري ويعتبره صيداً يستولي على ماله.

وفي سياق تمايز ثقافة أهل البادية عن ثقافة الحضر نجد المقامة الأسودية (الهمذاني ص ١٨٢) التي تعبر عن كرم أهل البادية وحسن ضيافتهم، فالبدوي يكرم ضيفه الحضري ويحسن وفادته، وفيها يحدث ابن هشام قائلاً: " كنت أتهم بمال أصبته، فهمت على وجهي هارباً حتى أتيت البادية، فأدتني الهيمة إلى ظل خيمة، فصادفت عند أطنابها فتى يلعب بالتراب مع الأتراب " فقد لجأ ابن هشام إلى البادية فاراً من تهمة لحقت به، باحثاً عن الأمن والقرى، فأدَّاه سيره إلى أرض الكرم، يقول: " فقلت: يا فتى العرب أدتني إليك خيفة فهل عندك أمن أو قرى ؟ قال: بيت الأمن نزلت وأرض القرى حللت، وقام فعلق بكمي، فمشيت معه إلى خيمة قد أسبل سترُها، ثم نادى: يا فتاة الحيِّ، هذا جارٌ نبت به أوطانه وظلمه سلطانه، وحداه إلينا صيت سمعه أو ذكر بلغه فأجيريه، فقالت الفتاة: اسكن يا حضري

أيا حضري أسكن ولا تخش خيفة فأنت ببيت الأسود بن قنان "

تسجل هذه الحوارية الحديث الدائر بين ابن هشام والفتى، فابن هشام (حضري) لفظته أوطانه، و " وظلمه سلطانه " فجاء مسافراً هارباً إلى البادية ومستجيرا بأهلها، وهذا يعكس بعدا سياسيا متمثل في جور الحاكم وظلمه وتنكيله بالرعية وهو ما تسبب في خوف ابن هشام وساقه إلى الفرار، فكانت البادية وأهلها بيت لا يخاف اللاجئ فيه، فهو بيت الأمن الكرم والقرى، وعن شدة كرم الفتي البدوي يحدث ابن هشام " قام فعلق بكمي " وكأنه لفرط الجود يخشى أن يفلت منه، وقد جمع المضيف في المقامة بين الجود والشجاعة والإقدام، وهي قيم ثقافية ترتبط بالوجود الاجتماعي الذي ينشأ فيه الأفراد.

ويتجلى في المقامة القردية الطابع الحضاري للمدينة وأحوال العمران، وأحوال الناس وما يعيشونه من ترف وفراغ، وفيهايحدث ابن هشام قائلاً: " بينا أنا بمدينة السلام، قافلاً من البلد الحرام، أميس ميس الرِّجلةِ، على شاطئ الدِّجلةِ، أتأمل تلك الطرائف، وأتقصى تلك الزخارف، إذ انتهيت إلى حلقة رجال مزدحمين يلوي الطرب أعناقهم ويشق الضحك أشداقهم، فساقني الحرصُ إلى ما ساقهم، حتَّى وقفت بمسمع صوت رَجُلٍ دون مَرْأى وجههِ لشدةِ الهجمةِ وفرط الزحمةِ، فإذا هو قراد يرقص قرده، ويضحك من عنده " (الهمذاني ص ١١١)

يبدأ ابن هشام حديثه فيشير إلى الزمن إشارة عابرة، بأنه زمن القفول من الحج، ويولي عناية بتحديد أبعاد المكان تحديداً مرتبطاً بشعوره النفسي،إثر عودته من البلد الحرام وقضاءه فريضة الحج، والوصول إلى مدينة السلام بغداد،مسروراً متبختراً بخفة وبدون تثاقل، كبقلة طرية تهزها النسائم، على شاطئ دجلة، مدللا بذلك على الفرق بين المكانين بتصويره ما استحدث من طرائف عمرانية أدهشته، وشغلت حواسه وتفكيره، فهو (يتأمل، ويتقصى) في تلك الطرائف والزخارف والنقوش، التي تعبر عن تغيير لحالة العمران في مدينة بغداد، فقد بدت بحلة جديدة مترفة وازدانت مبانيها ومعالمها، وبعد تحديد المكان ينتهي إلى حلقة رجال مزدحمين، يسوقه الحرص والفضول إلى معرفة سبب تجمعهم، وتحركه أشواقه إلى مشاركتهم فيما يشاهدون، فيقدم بذلك مشهداً من حياة مدينة بغداد في العصر العباسي، يختزل دلالات على الحركة الحضارية والحياة الاجتماعية والاقتصادية، بما يجمع من نماذج بشرية متعددة ومتنوعة في إحدى ساحات بغداد، متمثلة في: جموع العامة في إقبالهم وتكاثرهم وانشغالهم باللهو، وسعيهم وراء التسلية وتزجية الأوقات،ومشاهدة ما يضحكهم، وفي هذا ما يدل على الفراغ الذي يعيشونه، فيدفعهم إلى الازدحام حول قراد يرقص قرده، ويضحك من عنده، فيندهشون ويطربون لرقصه طرباً تحكيه أعناقهم الملتوية وكثرة ضحكاتهم.

وعيسى بن هشام المتأثر بالجماعة، والمتطلع إلى معرفة ما أثار تلك الجموع إلى التزاحم، يسوقه فضوله إلى الاندفاع وسط الحلقة، فيصف سيره بقوله: " فرقصت رقص المحرج، وسرت سير الأعرج، فوق رقاب الناس، يلفظني هذا لسُرَّة ذاك، حتى افترشت لحية رجلين، وقعدت بعد الأين، وقد أشرقني الخجل بريقه، وأرهقني المكان بضيقه " (الهمذاني ص ١١٢) فقد تحمل مشقة بالغة، وناله التعب، ليلبي رغبته في مشاهدة ما يشاهده المجتمعون، وينظم إليهم ويكون واحد منهم،ليعبر بذلك عن سلوك وطابع شخصي مستمد من ثقافة المدينة وسلوك أهلها المتزاحمين.أبو الفتح الاسكندري الذي يعمل قراداً، ليحصل على رزقه من هبات الناس، برغم امتلاكه لعلم وأدب غزير، يشير إلى ما آل إليه حال العلماء والأدباء من بؤس، دعاهم إلى تعاطي الحرف (الدنيئة) على حد وصف ابن هشام وهجرانهم للأدب والعلم، واتخاذهم حرف لا تليق بأهل العلم والأدب.

وتشير المقامة إلى مكانة الحيوان لدى المتنعمين والاهتمام به والاعتناء بتربيته، فقد ذكر القرد الذي جعل للفرجة و التسلية، وجلب الطرب، والكلب (المحرج)الذي يحظى بالرعاية والدلالويطوقه صاحبه بالودع ويعلمه العدو الشديد، فمكانة الحيوان لدى المترفين تفوق مكانة العلماء والأدباء أمثال أبي الفتح. ومن المشاهد العمرانية المميزة لذلك العصر ذكر الحمام في المقامة الحلوانية، وهو مكان يقصده الراغبون في النظافة والعلاج الطبيعي كالحجامة والتدليك، فقد اتخذت المقامة أحد حمامات حلوان مكاناً لأحداثها، إذ يحدثنا ابن هشام قائلاً: " لما قفلت من الحج فيمن قفل، ونزلت مع من نزل، قلت لغلامي: أجد شعري طويلاً، وقد اتسخ بدني قليلاً، فاختر لنا حماماً ندخله، وحجاماً نستعمله، ولـيكن الحمام واسع الرقعة، نظيف البقعة، وطيب الهواء، معتدل الماء، وليكن الحجام خفيف اليد، حديد الموسي، نظيف الثياب، قليل الفضول "(الهمذاني ص ٢٣٢) فقد رسم ابن هشام وحدد ملامح الحمام بتفاصيل دقيقة مدركاً بذلك الجانب الحضاري المميز لعصره، فقد عرضت المقامة الحلوانية العنصر الحضاري متمثلاً في وصف الحمام، و كشفت سلوك الأفراد،والتنافس الشديد للوصول إلى الكسب والربح المادي، من خلال تشاجر عاملي الحمام على رأس ابن هشام، إذ يقول: " وما لبث أن دخل الأول فحيا أخدع الثاني بمضمومة قعقعت أنيابه، وقال يا لكع مالك ولهذا الرأس هو لي ؟ ثم عطف الثاني على

الأول بمجموعة هتكت حجابه، وقال: بل هذا الرأس حقي وملكي وفي يدي، ثم تلاكما حتى عييا، وتحاكما لما بقيا " (الهمذاني ص ٢٣٥)

وفي المقامة الجاحظية أولى ابن هشام اهتماماً كبيراً لوصف تفاصيل الدار التي انتهى سيره إليها مشيراً بذلك إلى المجتمع المترف،فهي تمتاز بالرفاهية والترف والجمال في اتخاذ البسط والتزين بالورد والريحان ، وتنميق الألوان وكثرتها، مما يبعث في النفس طرباً يمتزج بعزف الناي والعود، يقول: فأفضى بنا السير إلى دار:

تركت والحسن تأخذه تنتقي منه وتنتخب
فانتقت منه طرائفه واستزادت بعض ما تهب

فقد فرش بساطها، وبسطت أنماطها، ومد سماطها، وقوم قد أخذوا الوقت بين آس مخضود، وورد منضود، ودن مفصود، و ناي وعود، فصرنا إليهم وصاروا إلينا، ثم عكفنا على خوان قد ملئت حياضه، ونورت رياضه، واصطفت جفانه، واختلفت ألوانه فمن حالك بإزائه ناصع، ومن قانٍ تلقاءَهُ فاقعٌ " (الهمذاني ص ٨٥)

ذكر الصحبة، وتصنيف الأصحاب:

يتجلى ذكر الصحبة الحسنة في السفر، والمذاكرة، والحث على اتخاذ الأصدقاء المخلصين ملمحاً بارزاً في المقامات، فغالباً ما يبدو ابن هشام مع جماعة وأصحاب وأصدقاء، تتفق مشاربهم، يصطحبهم في أسفاره، أو يجتمع معهم في مجلس يتذاكرون.

من مثل ذلك مايذكره في المقامة الأسدية عن الصحبة الحسنة في السفر، يقول :" اتفَّقتْ لي حاجةٌ بحِمْصَ، فشَحَذْتُ إليها الحرصَ، في صُحْبةٍ أفرادٍ كنجُومِ اللَّيلِ، أحلاسِ لظُهُورِ الخيلِ"(الهمذاني ص ٣٥) وقوله في المقامة الأهوازية: " كُنتُ بالأهوازِ في رفقةٍ ما ترقَّ العَيْنُ فيهم تسَهَّل، ليسَ فينا إلاّ أمْرَدُ بكْرُ الآمالِ، أو مُخْتطٌ حَسَنُ الإقبالِ، مَرْجُوٌّ الأيَّامِ واللَّيالِ، فأفضْنا في العشرةِ كيفَ نضعُ قواعِدَهَا، والأخُوَّةِ كيفَ نحكمُ معاقدَهَا، والسُّرورِ في أيِّ وقتٍ نتقاضَاهُ، والشُّربِ في أيِّ وقتٍ نتعاطاهُ، والأنسِ كيفَ نتهاداهُ، وفائِتِ الحظِّ كيف نتلافاهُ، والشُّرْابِ من أين نحصِّلُهُ، والمْجلِسِ كيفَ نُزيِّنُهُ، فقالَ أحدُنا عليَّ البيتُ والنُّزلُ، وقال آخَرُ: عليَّ الشَّرابُ والنقلُ "(الهمذاني ص ٦٧) وقد صنف الأخلاء إلى صنفين: نوع تجمعه المحبة والمودة، وآخر تجمعه المنفعة والمال،يقول في المقامة التاسعة والأربعين: " واتخذت إخواناً للمقه وآخرين للنفقة "

ومن الصنف الأول ما حدثنا عنه ابن هشام في المقامة المطلبية، وهم أخلاء أخلاقهم رضية، وأعراقهم طاهرة، وخصالهم شريفة، وعشرتهم طيبة تجمعهم المذاكرة، يقول: " اجتمعتُ يوماً بجماعةٍ كأنَّهُمْ زَهْرُ الرَّبيعِ، أو نُجُومُ الليلِ بعد هَزيعٍ، بوجُوهٍ مُضيَّةٍ، وأخْلاقٍ رَضيَّةٍ، قدْ تناسَبُوا في الزيِّ والحالِ، وتشابهوا في حسنِ الأحوالِ، فأخذنا نتجاذبُ أذيالَ المُذاكَرَةِ، ونَفْتَحُ أبوابَ المُحاضَرَةِ " (الهمذاني ٤٣٨) وفي المقامة الصيمرية يتجلى الصنف الثاني من الأصحاب، و يتضح غدر الرفاق والإخوان، فقد حدث ابن هشام عن أبي العنبس الصيمريأنه اصطفى صحبة، وأدخرهم للشدائد، وأراد أن يتقي بهم الخطوب، وعاديات الزمن، فكانوا يلازمونه وهو ميسور الحال طلباً لمنفعته ومنحه ومعروفه، يقول: " وذلك أني قدمت من الصيمرة إلى مدينة السلام، ومعي جراب دنانير ومن الخُرْثيِّ والآلة وغير ذلك ما لا أحتاج معه إلى أحد، فصحبت من أهل البيوتات والكتاب والتجار، ووجوه الثناء من أهل الثروة واليسار، والجدة والعقار، جماعة اخترتهم للصحبة، وادخرتهم للنكبة، فلم نزل في صبوح وغبوق، نتغدى بالجدايا الرضع، والطبهجات الفارسية....."، حتى أملق، وخف متاعه، وفرغ جرابه، فأنقلب الحال، وتغيرت شؤونهم،

وانبعثوا للفرار من مجلسه وفارقوه، يقول: " لما أحسوا بالقصة، وصارت في قلوبهم غُصّة، ودعوني برصة، وانبعثوا للفرار، كرميةِ الشَّرَارِ، وأخذتهم الضُّجرةُ فانسلوا قطرة قطرة، وتفرقوا يَمْنَةً ويَسْرَةً "، وقد خلف غدر الرفاق في نفسه الحسرة والألم والمرارة، التي عبر عنها بقوله: " وقَدْ ذَهَبَ جاهي، ونفِدَتْ صحاحي، وقَلَّ مراحي، وسلحتُ في رَاحِي، ورفضني الندماءُ، والإخوانُ القُدماءُ، لا يُرْفَعُ لي رَأسٌ، ولا أُعَدُّ من الناس، أوتَحُ من بزيغ الهَرَّاس، ورزينِ المرَّاس، أتردُّدُ على الشطِّ، كأنِّي راعي البطِّ، أمشِي وأنا حافي، وأتبعُ الفيافي، عيني سَخينةٌ، ونفسي رَهينةٌ " (الهمذاني ٣٥٤)

الفقر والمجاعات:

أبرزت المقامات ما تعانيه شريحة واسعة من المجتمع من الفقر و الخصاص المادي، وقسوة الحياة، وظلم المجتمع، وضيق الرزق، وشقاء العيش، وكان الفقر باعثاً للاغتراب والتكدي، وفي هذا السياق تظهر المقامة المجاعية، حيث يحدثنا ابن هشام أنه كان ببغداد عام مجاعة وقحط، فمال إلى جماعة وطلب منهم شيئاً، وفيهم فتى ذو لثغة بلسانه، وفلج بأسنانه، سأله عن حاجته، فأجابه ابن هشام قائلاً: " حالان لا يفلح صاحبهما: فقير كده الجوع، وغريب لا يمكنه الرجوع،فقال الغلام أي الثلمتين تقدم سدها ؟ قلت: الجوع فقد بلغ مني مبلغاً" (الهمذاني ص ١٦٣) يشتكي ابن هشام من الجوع والاغتراب للفتى، فيعرض عليه أصنافاً عديدة من الطعام، ليثير شهيته وشوقه إلى مائدة فاخرة و مكان مؤنق وثير، ومطرب مجيد، يقول:" فما تقولُ في رغيفٍ، على خُوانٍ نظيفٍ، وبقلٍ قطيف إلى خلٍّ ثقيفٍ، ولونٍ لطيفٍ، إلى خرْدلٍ حرِّيفٍ، وشِواءٍ صفيفٍ، إلى ملحٍ خَفيفٍ، يُقدِّمُهُ إليكَ الآنَ مَنْ لا يَمْطُلُكَ بوعدٍ، ولا يُعذِّبُكَ بصبرٍ، ثمَّ يُعلكَ بعدَ ذلك بأقداحٍ ذهبيَّةٍ، من راحٍ عِنبيَّةٍ ؟ أذاكَ أحبُّ إليكَ أمْ أوساط مَحْشُوَّةٌ، وأكوابٌ مملوَّةٌ، وأنْقَالٌ مُعَدَّدَةٌ، وفُرُشٌ مُنضَّدةٌ، وأنوَارٌ مُجوَّدةٌ، ومُطربٌ مُجيدٌ، له مِنَ الغزالِ عينٌ وجيدٌ ؟ فإنْ لم تُردْ هذا ولا ذاكَ، فما قُولكَ في لحمٍ طريٍّ، وسمكٍ نهريٍّ، وباذنجانٍ مقليٍّ، وراحٍ قُطْرُبُّليّ، وتفاحٍ جنيٍّ، ومضجعٍ وطيٍّ، على مكانٍ عليٍّ، حذاءَ نهرٍ جرارٍ، وحوضٍ ثرثارٍ، وجنةٍ ذاتِ أنهار ؟ قال عيسى بن هشام: فقلت: أنا عبد الثلاثة، فقال الغلام وأنا خادمها لو كانت " تبين أن كل ما عرضه خيال ووهم ، يستفز به الفتى حاجة ابن هشام الشديدة للطعام والراحة، ويسخر منه،وهى سخرية تحيل إلى المأساة والمعاناة التي يعيشها العامة من ضنك العيش والعوز، والرغبة في الحصول على ما يتنعم به الخاصة والأثرياء من رفاهية ودعة، وحياة باذخة.

وتعبر نهاية المقامة عن يأس ناتج من قلة ذات اليد، فقد أمات الفقر الشهوات،وأيقن الفقراء استحالة حصولهم على ما يشتهونه في تلك المجاعات، وهو ما عبر عنه قول ابن هشام : " فقلت: لا حياك الله، أحييت شهوات قد كان اليأس أماتها " (الهمذاني ص ١٦٤) وهو ما يعكس سياق سياسي موسوم بالظلم والحرمان والتهميش في ظل عصر ازدهرت الدولة الإسلامية فيه وازدادت ثرواتها.

ثالثاً: السياق اللغوي

لو تأملنا السياق اللغوي الذي أنشأت فيه مقامات الهمذاني، لتوصلنا إلى ازدهار وسمو اللغة العربية، فقد تميز الناثرون والكتاب بمحصول لغوي غزير، وعناية بالغة بحفظ الأسماء الكثيرة والمترادفات النادرة، وفهم عميق لعلوم اللغة ، وجمع لنفائسها، وقد كانت اللغة غاية في حد ذاتها،ويعزو الباحثون ذلك إلى إدراك الخطر الذي بات يهدد اللغة العربية جراء اختلاط العرب بالأعاجم، ولذلك استجابت المقامة لذوق العصر، فأبدى الهمذاني اهتماماً كبيراً باللغة المتينة المزخرفة، وإجادة الصياغة، وتماسك النص من مختلف جوانبه، و مثلت اللغة في المقامات عنصراً مهماً، بما تميزت به من مكونات

بلاغية، وجمعت من ألفاظ مؤنقة، وكونت من جمل تنبض بالحركة، وتشيع الموسيقى الداخلية في النص من خلال الإيقاع المسجع.

فقد أظهر بديع الزمان الهمذاني اقتداراً في معرفة اللغة، ومهارة في انتقاء الألفاظ، سعياً لجذب متلقيه، وإثارةإعجابهم بفريد عبارته وندرتها، وهذه سمة اشتركت فيها المقامة مع ما سبقها من أحاديث ابن دريد، وقصص ابن فارس التعليمية، ولذلك قرر الدكتور شوقي ضيف أن مقامات الهمذاني من ضروب القصص التعليمي، وأن غايته أن يمتلك النشء ناصية اللغة، و" قد أدته هذه الغاية إلى أن يكثر من الأساليب المصنعة، كما أدته إلى أن يكثر من اللفظ الغريب" (ضيف ص ٢٥٣) وتتميز لغة المقامات بسمات غالبة من أبرزها:

– مجموعة الاختيارات المعجمية (اللفظية)، والتركيبية (النحوية) التي أولاها الهمذاني عنايته ، فهو يصطفي للنص ألفاظاً وتراكيب معينة أضفت على النص طابعاً مميزاً، ويعتمد في اختياره الألفاظ على انتقاء اللفظ المسجع، إذ تتضح براعة الهمذاني في اصطياد اللفظة التي تناسب فواصل السجعات، وتحدث إيقاعاً صوتياً فتحيط بالمعنى تكمله،وأمثلة ذلك كثيرة في المقامات،منها على سبيل المثال لا الحصر قوله في الأصفهانية:" كُنْتُ بأصْفَهَانَ، أعْتَزِمُ المسِيرَ إلى الرَّيِّ، فحللتُها حُلُولَ الفيِّ، أتوقَّعُ القَافلةَ كلَّ لمْحةٍ وأتَرَقَّبُ الرَّاحِلة كلَّ صبَحةٍ، فلمَّا حُمَّ ما توقَّعتُهُ، نُوديَ للصَّلاةِ نِدَاءً سَمعتُهُ، وتَعيَّن فرضُ الإجابةِ، فانْسَلَلْتُ بَيْنَ الصَّحابةِ، أغْتَنِمُ الجماعة أدْرِكُها، وأخْشَى فَوْتَ القافلةِ أترُكُها، لكنِّي استْعَنْتُ ببركاتِ الصلاةِ، على وعثاءِ الفلاةِ " يسهم اللفظ المسجوع في التعبير عما يعتور ابن هشام من خوف وقلق من فوت القافلة التي يتزامن قدومها مع نداء الصلاة، ويترجم مشاعره بمفردات دقيقة تناسب المعنى المراد فيقول: " فَصِرْتُ إلى أوَّلِ الصَّفُوفِ، ومثلتُ للوُقُوفِ، وتقدَّم الإمامُإلى المِحْرَابِ، فقَرأ فاتحة الكتابِ، بقراءَةِ حمْزَةَ، مدَّةً وهَمْزَةً، وبِي الغمُّ المُقيمُ المُقعِد في فوْتِ القافلةِ والبُعْدِ عَن الرَّاحلةِ، وأثْبعَ الفاتِحة الواقِعة، وأنا أتَصَلَّى نَارَالصَّبرُ وأتَصلَّبُ، وأتَقلَّى على جمْرِ الغيْظِ وأتقلَّبُ وليْسَ إلاَّ السَّكُوتُ والصَّبْرُ، أو الكلَامُ والقبْرُ " (الهمذاني ص ٦٢)

وانتقاء الألفاظ لم يكن لتحقيق السجع فحسب بل إنه يصطاد الألفاظ الغريبة والنادرة، وقد أخذ الدارسون على البديع إسرافه وغلوه في ملاحقة الغريب من أجل الإتيان بألفاظ المجانسة، ونوه الدكتور شوقي ضيف إلى ذلك بقوله:" فإنه كان يعني في المقامات بتعقيد أداة التصنيع التي كان يعجب بها وهى أداة الجناس، وربما كانت أحد الأسباب التي جعلته يعنى بالغريب، فإن المعجم العادي قد لا يعطيه الكلمة التي يريدها، فيبحث عنها في المعجم الغريب، وحينئذ لا يهمه ابهامها ولا اعتياصها، كقوله: " أميس ميس الرجلة على شاطئ دجلة " (الهمذاني ص ١١١) فإن مجانسته لكلمة الدجلة هى التي اضطرته إلى كلمة الرجلة، وهى جمع رجل، وهو جمع شاذ، لكنه عدل إليه من أجل جناسه، ومثل ذلك أيضاً قوله: " فأخذه الجُفّ، وملكته الأكف " (الهمذاني ص ١١٧) والجف: العدد الكثير من الناس، ومثله قوله: " الإكراه مرة بالمِرّة، ومرة بالدِّرَّة "، والمرة هنا العقل، وقد استخدمها لغرض الجناس بينها وبين الدرة. وعلى هذا النحو كانت تضطره المجانسة أحياناً إلى ما يركب من لفظ الغريب " (ضيف ص ٢٥٤) وتضاف إلى هذه الأمثلة التي أوردها الدكتور شوقي ضيف أمثلة كثيرة منها ما نجده في المقامة الحمدانية إذ يحشد ألفاظاً مهملة وحوشية في وصف فرس.– تنوع اللغة واختلافها رقة ورصانة: تتمايز لغة المقامات تبعا لاختلاف الشخصيات، وبيئتها ومداركها العقلية، وأحوالها النفسية،

فالشخصية الأعرابية لها لغتها الخاصة المختلفة عن الشخصية الحضرية، وتتروح الألفاظ بين عذبة رقيقة، وغريبة يندر استعمالها، إذ يجنح إلى غريب اللغة في بعض مقاماته، ويحاكي قسوة حياة الأعراب، من مثل المقامة الناجمية التي يقول فيها: " بتُّ ذاتَ ليلة في كتيبة فضل من رفقائي فتذاكرنا الفصاحة، وما ودَّعنا الحديث حتى قرع علينا الباب، فقلت من المنتاب ؟ فقال: وفدُ الليلِ وبريدُهُ، وفلُّ الجوع وطريدُه ُ، وغريبٌ نضوُهُ طليحُ، وعيشُهُ تبريحٌ، ومن دونِ فرخيهِ مهامهُ فيحٌ، وضيف ظلُّهُ خفيفٌ، وضالته رغيف " (الهمذاني ص ٢٨٦) ونرى مثل ذلك في المقامة الكوفية: " قرع علينا الباب، فقلنا من القارع المنتاب ؟ فقال: وفد الليل وبريده، وفل الجوع وطريده، وحر قاده الضر والزمن المر، وضيف وطؤه خفيف، وضالته رغيف، وجار يستدعي على الجوع، والجيب المرقوع، وغريب أوقدت النار على سفره، ونبح العواء على أثره، ونبذت خلفه الحصيات، وكنست بعده العرصات، فنضوه طليح، وعيشه تبريح، ومن دون فرخيه مهامه فيح. قال عيسى بن هشام: فقبضت من كيسي قبضة الليث، وبعثتها إليه وقلت: زدنا سؤالاً، نزدك نوالاً. (الهمذاني ص ٣٣)

المزاوجة بين النثر والشعر:

تتجلى في عديد المقامات إحاطة البديع بفنون القول (الشعر والنثر) وحفظه وتذوقه للشعر، والمقامة مزيج من النثر والشعر، وقد أبدع الهمذاني نثراً وشعراً، إذ يعبر عن فكرته نثراً ثم يكملها بالشعر، وقد استخدم الشعر لوصف الشخصيات والأماكن، من مثل قول الاسكندري واصفاً نفسه (الهمذاني ص ١٦٧):

أنا من ذوي الاسكندرية من نبعة فيهم زكية
سخف الزمان وأهله فركبت من سخفي مطية

ويصف ديناراً من الذهب فيقول (الهمذاني ص ٩٢):

يا حُسْنَهَا فاقعةٌ صفراءُ ممشوقةٌ منقوشةٌ قوراءُ
يكادُ أنْ يقطرَ منها الماءُ قدْ أثمرتها همةٌ علياءُ
نفسُ فتًى يملكُهُ السَّخاءُ يصرفُهُ فيهِ كما يشاءُ
يا ذا الَّذي يعنيهِ ذا الثناءُ ما يتقضَّى قدْرَكَ الإطراءُ
أمض إلى اللهِ لكَ الجزَاءُ .

وكذلك يختتم جل المقامات بأبيات شعرية تختزل أفكاره.

– المعرفة الجيدة بعلوم اللغة و إبداء الآراء النقدية في الأدب:

نجد مثل ذلك في المقامة الجاحظية، إذ يبدي الهمذاني رأيه حول المنظوم والمنثور،ويعلي من شأن الإجادة في شقي البلاغة الشعر والنثر ويعتبر الجاحظ مقصراًلعدم نظمه الشعر، إذ يخاطب الإسكندري عيسى بن هشام ورفقة اجتمعوا فأفضى بهم الحديث إلى ذكر الجاحظ وخطابته، ولسنه، وحسن سننه في الفصاحة، فيقول " إن الجاحظ في أحد شقي البلاغة يقطف، وفي الآخر يقف، والبليغ من لم يقصر نظمه عن نثره، ولم يزر كلامه بشعره، فهل ترون للجاحظ شعراً رائعاً ؟ قلنا: لا " (الهمذاني ص ٨٤)، ونستشف من قوله هذا رغبة الهمذاني في التفوق والتميز بلاغياً ولغوياً، واعترافه ضمنياً بنبوغه وتقدمه على الجاحظ لأنه لم يقصر شعراً ونثراً، وجمع بينهما في مقاماته.وفي المقامة القريضية دار حوار بين عيسى بن هشام وصحبه مع الإسكندري حول القريض وأهله، و أورد بديع الزمان على لسان الإسكندري أراء عديدة حول الشعراء الأقدمين، وهم امرؤ القيس والنابغة وزهير وطرفة وجرير والفرزدق، حيث يسأله الحاضرون: ما تقول في امرئ القيس ؟ فأجاب: " هو أول من وقف بالديار

وعرصاتها، وأغتدى والطير في وكناتها، ووصف الخيل بصفاتها، ولم يقل الشعر كاسياً، ولم يجد القول راغباً، ففضل من تفتق للحيلة لسانه، وانتجع للرغبة بنانه " (الهمذاني ص ١٠) وما تقول في النابغة ؟ قال: " يثلب إذا حنق، ويمدح إذا رغب، ويعتذر إذا رهب، فلا يرمي إلا صائباً "، فما تقول في زهير ؟ قال: " يذيب الشعر والشعر يذيبه ويدعو القول والسحر يجيبه، قلنا: فما تقول في طرفه ؟ قال: هو ماء الأشعار وطينتها، وكنز القوافي ومدينتها، مات ولم تظهر أسرار دفائنه، ولم تفتح أغلاق خزائنه " (الهمذاني ص ١٠) وفي المقامة العراقية يبين ابن هشام أنه اطلع على كتب الشعر وتصفح دواوينه، وأنه ضرب فيه بسهم وفير، يقول " طفت الآفاق، حتى بلغت العراق، وتصفحت دواوين الشعراء، حتى ظننتني لم أبق منزع ظفر "، كما يظهر الإسكندري حصافة ودراية بالشعر يتفوق بها على ابن هشام وذلك حين يلقي عليه أحاجي حول الشعر من مثل: " هل قالت العرب بيتاً لا يمكن حله، وهل نظمت مدحاً لم يعرف أهله، وهل لها بيت سمج وضعه...." فيعجز ابن هشام، ولا يهتدي إلى إجابتها، يقول " فوالله ما أجلت قدحاً في جوابه، ولا اهتديت لوجه صوابه إلا " لا أعلم " فقال " وما لا تعلم أكثر "(الهمذاني ص ١٨٦)وأوضح الهمذاني في مقاماته رفضه للاتجاه النثري السائد الذي يعتمد البعد عن السجع، وعمد إلى نقد الجاحظ بقوله: " فَهلُمُّوا إلى كلامِهِ، فهو بعيدُ الإشاراتِ، قليلُ الاستعاراتِ، قريبُ العباراتِ، مُنقادٌ لعُريانِ الكلامِ يستعملُهُ، نَفُورٌ من مُعتاصهِ يُهملُهُ، فهل سمعتم له لفظة مصنوعة، أو كلمة غير مسموعةٍ ؟ "(الهمذاني ص ٨٧) وهو بذلك أسس لإجتراح اتجاه نثري مغاير، وأستنّ مذهب للكتابة قائم على استخدام اللغة المزخرفة والإغراق في التصنع.كما يبدي رأيه حول مسألة شغلت أوساط الأدب في ذلك الأوان،وهي المفاضلة بين الشعراء الأقدمين وهم شعراء بني أمية وما قبلها والمتأخرين وهم شعراء الدولة العباسية وما وليها ، وذلك حين يُسأل، فما تقول في المحدثين من الشعراء والمتقدمين منهم ؟ قال: المتقدمون أشرف لفظاً، وأكثر من المعاني حظاً، والمتأخرون ألطف صنعاً، وأرق نسجاً " وهوبذلك يوافق قول أبي العباس المبرد في الكامل (٨٢٦-٨٩٨) والذي مفاده: " وليس لقدم العهد يفضل القائل ولا لحدثان العهد يهتضم المصيب، ولكن يعطى كل ذي حق حقه " (عبد الحميد، محمد محيي الدين ص ١٥)

النتائج

– ينفرد نص المقامات ببناء ثقافي، انعقدت فيه سياقات ثقافية متعددة دينية واجتماعية ولغوية، وتجاذبته علاقة تواصلية متينة بالسياق الثقافي وظروفه الزمانية والمكانية وتحولاته، التي عاشها الهمذاني وتأثر بها وأثر فيها.

– للمقامات خصوصيتها الثقافية، فقد صدرت عن المجتمع العربي والإسلامي، والأوساط الدينية الخاصة، ولفتت انتباه القارئ إلى السياق الديني، من خلال عرضها لقضايا ووقائع وأحداث وشخصيات في إطار الدين الإسلامي، فأبرزت النزعة إلى الوعظ، الذي شغل مساحة واسعة من نصوص المقامة، وكان له حضور قوي فيها، وتجلت بعض الشخصيات الدينية، التي تحمل بعداً ثقافياً، وتعبر عن واقع متخم بالمتناقضات، كشخصية الإمام والواعظ، التي تكشف عن تناقض بين باطن يضمر الشر والفجور، وظاهر يظهر الورع والتقوى، كما برزت أفكار ومعتقدات تدل على انحراف العقيدة الإسلامية، وتعطيل عقل الأمة، كالتطير والإيمان بالحرز والتمائم، والإيمان بشيطان الشعر، وتجلى الصراع المذهبي، واختلاف المعتقدات، والصراع الفكري.

– تشف المقامات عن سياق لغوي ازدهرت فيه اللغة العربية وسمت، وتميز الناثرون والكُتَّاب فيه بمحصول لغوي غزير، وفهم عميق لعلوم اللغة ومترادفاتها، وجمع لنفائسها، فقد أبدى الهمذاني اهتماماً بالغاً باللغة المتينة المزخرفة، وإجادة الصياغة، ومثلت اللغة في المقامات عنصرًا مهماً، بما تميزت به من مكونات بلاغية، وجمعت من ألفاظ مؤنقة، وجمل تنبض بالحركة، وتشيع بالموسيقى من خلال الإيقاع المسجع.

Abstract

The cultural structure in the maqamat Al-Hamdhani

By Khatita Muhammad Ali Al-Mabrouk Al-Suwaidi

This research deals with the cultural construction of the Maqamat of Badi 'al-Zaman al-Hamdhani, and seeks to read the text of the maqamat a cultural reading, and tries to place the text within the cultural context in which it originated, to understand it, analyze its structure, and arrive at its character, based on some methodological steps derived from the cultural curriculum.

The shrines of Badi al-Zaman al-Hamdhani represent a part of our authentic Arab heritage, which was crystallized in the second half of the fourth century AH, and it hoarded a rich cultural stock, monitored a cultural context, and transformed temporal variables, and it was an expression of understanding and awareness of the cultural variables of that time. Between its cultural context and its spatial and temporal conditions, as the general framework obligated Badi al-Zaman al-Hamdhani to build his speech a cultural construct according to mechanisms that fit this context. Hamdhani was able to read the cultural context, reveal its mysteries, and define its features in a special literary form. The linguistic structure, and the coherent structure in general, was necessitated by a linguistic context characterized by scientific and cultural development, as well as the maqamat specialized in providing great pictures of various aspects of social, political and religious life.

key words

Context, religious context, social context, linguistic context

قائمة المصادر والمراجع:

المعاجم:

١- ابن فارس، أبي الحسين بن أحمد ١٩٦٩، م ،١٣٨٩هـ، معجم مقاييس اللغة، ط٢، مصر، مطبعة مصطفى الحلبي.

٢- ابن منظور،أبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم المصري،٢٠٠٣م ، لسان العرب، دار صادر

المصادر:

عبد الحميد، محمد محيي الدين د.ت، شرح مقامات بديع الزمان الهمذاني، ط٢، دار الكتب العلمية

عبده، محمد،١٨٨٩م مقامات بديع الزمان الهمذاني، المطبعة الكاثوليكية

المراجع:

أصطيف، الغذامي، عبدالله، عبد النبي، ٢٠٠٤ م، نقد ثقافي أم نقد أدبي، ط١ دار الفكر

أولمان، ستيفن، ترجمة كمال بشر، ١٩٨٨ م، دور الكلمة في اللغة، القاهرة، مكتبة الشباب

حسان، تمام ،٢٠٠٤م ١٤٢٥هـ ،اللغة العربية مبناها ومعناها، ط٤، عالم الكتب

الزمخشري ، محمد بن عمر، ١٩٩٣م، أساس البلاغة، ط١، بيروت

السعافين، إبراهيم، ١٩٨٧م، ١٤٠٧هـ، أصول المقامات، ط١، بيروت، دار المناهل

ضيف، شوقي، د.ت، تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني، ط١٥، القاهرة، دار المعارف

الطلحي، ردة الله بن ردة بن ضيف الله، ١٤٤٢هـ، دلالة السياق، ط١، جامعة أم القرى

عبد المطلب، محمد، ٢٠١٣ م، القراءة الثقافية، ط١، القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة

عوض، يوسف نور، ١٩٨٦م، ١٤٠٦هـ، فن المقامات بين المشرق والمغرب، ط١، مكة المكرمة، مكتبة الطالب الجامعي

تعريف بالباحث:

الاسم: خطيطة محمد على المبروك السويدي

أستاذ مساعد في اللغة العربية وآدابها جامعة سرت – ليبيا

طالبة دكتوراة في اللغة العربية وآدابها بجامعة عين شمس